



إيبارشية جنوبي أمريكا للأقباط الأرثوذكس

مايو ٢٠٢٣ م

الرسالة الشهرية للرهبان والراهبات

الصبر ونفاذ الصبر

قال أحد الشيوخ: "الصبر هو القوة للبقاء على الصليب". للصبر جانب مهم في علاقتنا بالله، وبعضنا البعض، وهو شيء يجب علينا العمل عليه بنشاط لأجل تطويره والنمو فيه. ففي المقام الأول، يتطلب الصبر الثقة بخطة الله لحياتنا. يجب علينا أن ندرك أن الله هو المتحكم، وأن توقيته مثالي، ربما يكون هذا الأمر صعب القبول، خاصة عندما نواجه تحديات وعراقيل، أو احباطات وخيبة أمل. ولكن علينا أن نتذكر أن طرق الله ليست كطرفنا، وأنه يعمل بأساليب فائقة وغير متوقعة. علاوة على ذلك، يتطلب الصبر استعداداً لتحمل الألم والصعاب بثقة وثبات.

يجب أن نقاوم قوة الجذب للانقياس، أو التحول إلى المرارة عندما لا تسير الأمور على ما يرام. بل بدلاً من ذلك علينا أن نسعى جاهدين لتنمية روح الثبات والاحتمال، ونثق في وعد الله الذي يقول: "فَإِنِّي أَحْسِبُ أَنَّ أَلَمَ الزَّمَانِ الْحَاضِرِ لَا تُقَاسُ بِأَلَمِ الْمَجْدِ الْعَتِيدِ أَنْ يُسْتَعْلَنَ فِيْنَا" (رو٨: ١٨).

إذا حاول أحدهم استفزازك وجذبك إلى القتال، فيجب عليك تذكر توجيه الرب: "مَنْ لَطَمَكَ عَلَى خَدِّكَ الْأَيْمَنِ فَحَوِّلْ لَهُ الْآخَرَ أَيْضًا". (مت ٥: ٣٩)، دع الإثم يخور من صبرك؛ إذا اندلع لسان حاقد في لعن وسب أو مشاحنات وجدال، فتذكر القول: "إِذَا عَيَّرُوكُمْ وَطَرَدُوكُمْ وَقَالُوا عَلَيْكُمْ كُلَّ كَلِمَةٍ شَرِيرَةٍ... إَفْرَحُوا وَتَهَلَّلُوا" (مت ٥: ١١، ١٢). لقد كان الرب نفسه ملعوناً أمام الناموس، وهو وحده المبارك. لذا دعونا، نحن خدامه، نتبع سيدنا ونخضع بصبر للشوائب حتى نتمتع بالبركة.

إذا أنا سمعت، بقليل من الصبر والاحتمال، بعض التصريحات المريعة أو الشريرة الموجهة ضدي، فقد أعيدتها لموجهها، وعندئذ سأكون حتماً في مرارة نفس. فإما أن أفعل هذا، أو سيعذبني ذلك الاستياء غير المعلن المستعر بداخلي، وإذا كنت سأنتقم لنفسي ضد من يلعني، فكيف إذ ذاك سأكون قد اتبعت تعاليم ربنا، الذي سلّمنا إن الإنسان لا يتنجس بالطعام، بل بكل كلمة تخرج من فمه (مت ١٥: ١١). والأكثر من ذلك، أنه سيبقى لنا أن نقدم حساباً يوم الدين على كل كلمة بطالة نتفوه بها (مت ١٢: ٣٦). يترتب على ذلك أن ربنا يمنعنا من القيام ببعض الأعمال، ولكنه في نفس الوقت ينصحنا أن نتحمل بوداعة وصبر نفس تلك الأعمال إذا أنت علينا على يد شخص آخر.

أيضاً، فإن الطاعة نفسها تنبع من الصبر: فلا يُطيع أبداً من هو غير صبور، ولا يرفض رجل صبور الطاعة. فمن ذا الذي يستطيع أن يتعامل بشكل ملائم مع قيمة ذلك الصبر الذي أظهره الرب إلهنا، الذي هو نموذج كل صلاح، بل وحامل الصلاح كله في ذاته. أنه صورة الصبر الإلهي الموجود بالفعل منذ الأزل، لم يخاصم ولم يصيح، ولم يسمع أحد في الشارع صوته، قصبة مرضوضة لم يقصف، وفتيلة مدخنة لم يطفئ (مت ١٢: ١٩، ٢٠)، لم يُجبر أحداً على البقاء بالقرب منه على غير رغبته، ولم يحتقر أبداً مائدة أحد أو مسكنه، أنما في الواقع، فقد خدم تلاميذه شخصياً بغسل أقدامهم. لم يحتقر الخطاة والعشارين، ولم يظهر غضباً تجاه تلك المدينة التي رفضت استقباله، وإنما زجر تلميذاه اللذان أرادا أن تسقط ناراً من السماء على تلك المدينة المخزية. لقد شفى الجاحد، واستسلم لمضطهديه، بل الأكثر من ذلك فقد بقى مع الشخص الذي سيسلمه، ولم يدينه بشدة. لماذا؟! حتى عندما يتم خيانتته التي خطط لها، ويقوم بتسليمه، يكون هو مثل الحمل الذي يُساق إلى الذبح، كما هو مكتوب: "مِثْلَ شَاةٍ سِيقَ إِلَى الذَّبْحِ، وَمِثْلَ خَرْوْفٍ صَامِتٍ أَمَامَ الَّذِي يَجْزُهُ هَكَذَا لَمْ يَفْتَحْ فَاةً" (أع ٨: ٣٢). وهو الذي كان يمكن أن يكون لديه لو أراد، بكلمة واحدة، جيوش وربوات من الملائكة السمايين لمساعدته والدفاع عنه. أنه لم يوافق حتى على سيف منتقم من جانب أحد تلاميذه. أن حلم الرب وصبره هو الذي جرح في شخص ملخس. وهكذا، فقد لعن أعمال السيف كلها إلى الأبد، وبواسطة شفاء من لم يضره بنفسه، لعن أعمال السيف والعنف كلها إلى الأبد مفتدياً إياها بالصبر الذي هو أم الرحمة.

لا يسعني أن أقول شيئاً عن صلبه؛ فهو من أجل هذا جاء. ومع ذلك، هل كان هناك حاجة إلى مثل هذه الإهانات في الموت الذي كان يجب أن يتعرض له؟ لا؛ ولكن فيما هو سائر في طريق موته، أراد أن يملأ فرحه بالألم والمعاناة: بُصق عليه، وضُرب، وأُستهزأ به، ولبس ملابس مخزية، حتى أنه توج بتاج مهين جداً على رأسه. لقد أثار ثبات تواضعه التعجب الشديد! لم يقلد بأي درجة من درجات نفاذ صبر الإنسان. لهذا السبب بالذات، كان يجب عليكم أيها الفريسيون، أن تعرفوا الرب. فصبر مثل هذا، تلك كانت مظاهره، لا يقدر أبداً على ممارسته مجرد إنسان!

من ناحية أخرى، فإن أصل نفاذ الصبر موجود في الشيطان نفسه. يمكن إرجاع كل خطيئة إلى نفاذ الصبر. ما هي الخطيئة السابقة لخطيئة نفاذ الصبر التي يمكن أن تُنسب إلى الإنسان؟ كان بريئاً وصديقاً لله، مقرباً ومقيماً معه في الجنة. ولكن، عندما استسلم لنفاذ صبره، توقف عن الاستمتاع بالله، ولم يعد قادراً على تحمل أمور السماء. منذ ذلك الوقت فصاعداً، عندما سلم الإنسان إلى الأرض، وطرده بعيداً عن عيني الله، بدأ في أن يكون خادماً كأداة سهلة في يد نفاذ الصبر، حيث استعبد لعمل كل شيء يخالف وصايا الله.

لأن نفاذ الصبر الذي حمله الشيطان بشره قد وُلِدَ، فوراً، ولداً منه هو "الغضب"، وعلم نسله كله فنونه الخاصة. ولأنه أوقع آدم وحواء في الموت، فقد علم ابنيهما أيضاً أن يرتكب جريمة القتل الأولى. لذا فيمكننا أن نعزو تلك الخطيئة التي لقاين، أول قاتل على الأرض، إلى نفاذ الصبر.

ثم أليس من الواضح أن شعب إسرائيل نفسه، بسبب نفاذ صبره، قد أخطأ إلى الله؟ لقد تناسى ذراع الرب الإلهية السماوية التي انقذته من محنة المصريين، وطالب هارون بصنع إله يقوده ويسير أمامه، ولأنه نفذ صبره سريعاً بسبب تأخر موسى في لقاءه مع الرب على الجبل، فقد سكب تقدماته أمام الصنم المصنوع من مشغولاته الذهبية، حتى بعد نزول المن من السماء كالمطر كغذاء، وتدفق الماء من الصخرة للشرب، فقد الشعب الأمل في الرب، بعد أن ظهر غير قادر على تحمل العطش لثلاثة أيام فقط، لذلك أتهمهم الرب بأنهم شعب صلب الرقبة عديم الصبر.

دعونا نتحدث عن الحالات الفردية بينهم، لم يكونوا ليبادوا من الشعب لو لم يسقطوا في خطيئة نفاذ الصبر، ثم لماذا وضعوا أيديهم على الأنبياء ليقتلوهم؟ إلا لأنهم لم يتحملوا سماعتهم ولم يكن لديهم أي صبر، بل الأكثر من ذلك فقد وجهوا أيديهم نحو الرب نفسه، غير قادرين أن يحتملوا حتى النظر إليه، لكن لو كانوا قد اكتسبوا الصبر لكانوا قد أصبحوا أحراراً الآن.

هناك دافع آخر، وقوي للغاية، يؤدي إلى نفاذ الصبر، وهو الرغبة في الانتقام، ويخطئ من يظن إن الانتقام هو بمثابة تهدئة لألم المرء، ولكن في ضوء الحقيقة يُنظر إليه على أنه شر يصارع شراً. ومع ذلك، فإن كل واحداً من طرفيه مذنب أمام الرب لجرح وإيذاء أخيه، والرب يحظر ويدين كل فعل إثم أو تعدى. فلا يوجد ترتيب هرمي في الفعل الخاطئ، ولا يوجد أي تمييز في الموقف الذي يصنعه التشابه في الفعل ورد الفعل بمثله. لذلك، تم وضع الوصية بشكل لا لبس فيه: بعدم مقاومة الشر بالشر. والا كيف ستسامح وتختبر المغفرة إذا كنت تتشبث بالانتقام لأذيتك بسبب نفاذ صبرك؟!

أي شخص ينفعل ضد أخيه، لن يكون بإمكانه أن يكمل تقديم قربانه على المذبح، إلا إذا تحلى بالصبر وتصالح مع أخيه. إذا غربت الشمس على غضبنا، فنحن في خطر شديد. قد لا نعيش يوماً واحداً بدون صبر. ومع ذلك، بما أن الصبر يحكم كل جانب من جوانب الحياة المفيدة، فلا عجب أنه يمهد لنا الطريق للتوبة، التي تأتي، كقاعدة عامة، لمساعدة أولئك الذين سقطوا.

وهكذا أيضاً، في تلك الأمثلة من أمثال ربنا، هناك نسمة صبر: صبر الراعي هو الذي يبحث عن الخروف الضال ويجده (الصبر يتحمل شقاء وتعب البحث، أما نفاذ الصبر فلن يأخذ في الاعتبار خروفاً واحداً)، ويحملة على كتفيه، كراعي صبور يحمل عاصياً متروكاً. وفي حالة الابن الضال أيضاً، فإن صبر والده هو الذي رحب به، وألبسه وأطعمه، وأوجد له عذراً في مواجهة نفاذ صبر أخيه الغاضب. فالذي هلك يُنقذ ويخلص لأنه التجأ للتوبة. فالتوبة لا تضع أبداً لأنها التقت بالصبر.

تأمل الآن في المحبة، رباط الإيمان العظيم، كنز الدين المسيحي كله، التي يمجدها الرسول بكل قوة الروح القدس: كيف لا يمكن تعلمها إلا بالصبر؟! يقول الرسول عنها: "تَحْتَمِلْ كُلَّ شَيْءٍ" (١كو ١٣: ٤-٧)، هذا يستمد من الصبر. أنها "تَتَأَنَّى وَتَرْفُقُ" والصبر لا يفعل الشر. أنها "لَا تَحْسِدُ"، الحسد هو بالتأكيد سمة من سمات نفاذ الصبر. أنها "لَا تَتَفَاخَرُ، وَلَا تَتَنَفِّخُ"، حيث ذلك لا يليق بالصبر لأنه ليس السعي وراء الذات أو المصالح الشخصية. إنها تعاني من فقدان سلعتها الخاصة وما تملكه، بشرط أن تكون لصالح الآخرين دون أي شعور بالغضب أو الندم (لا تطلب ما لنفسها).

فما الذي تتركه المحبة لنفاذ الصبر إذن؟ يقول أيضاً: "الْمَحَبَّةُ تَحْتَمِلُ كُلَّ شَيْءٍ، وَتَصْبِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ" بالطبع، لقد قال الرسول ذلك لأنه إنسان صبور بحد ذاته. لذلك هو محق إذن في قوله إنها "لَا تَسْقُطُ أَبَداً". "وَأَمَّا النُّبُوءَاتُ فَسَتُبْطَلُ، وَالْأَلْسِنَةُ فَسَتَنْتَهِي، وَالْعِلْمُ فَسَيُبْطَلُ، أَمَّا الآنَ فَيَثْبُتُ: الْإِيمَانُ وَالرَّجَاءُ وَالْمَحَبَّةُ" (١كو ١٣: ٨، ١٣): هذا الإيمان هو الذي غرسه صبر المسيح؛ وذاك الرجاء هو الذي يتطلع إليه صبر الإنسان؛ بينما المحبة فهي التي يرافقها الصبر وفقاً لتعاليم الله.

الله قادر تماماً على أن يكون أميناً علي صبرنا: إذا وضعتم ظلاماً تعرضتم له بين يديه، فسيتأكد من تنفيذ العدالة؛ وإذا كانت خسارة، فسوف يتأكد من أنكم تحصلون على التعويض؛ وإذا كان المأ، فسوف يعمل كمداوي؛ وإذا كان الموت، فسوف يعيد الحياة.

كما يمنح الله للصبر. فإنه يولي اهتماماً بجميع تعاليمه، ويصبح ضامناً لتنفيذ جميع وصاياه: يقوي الإيمان، يحكم السلام، يسند المحبة، يعلم التواضع، يقود إلى التوبة، يضع ختمه على تأديبه المحب، يسيطر على الجسد، يحفظ الروح، يضبط اللسان، يكبح جماح اليد العنيفة، يدوس الإغراءات تحت الأقدام، يدفع بالفضيحة جانباً، يتمم الشهادة. يوفر العزاء في حالة الفقر، يفرض الاعتدال في الغنى والثراء، يجنب المريض اليأس. إنه يجذب الوثنيين إلى الإيمان، ويوصي العبد بسيده، والسيد بالله.

الصبر ليس مجرد القدرة على تحمل المصاعب، ولكنه أيضاً القدرة على البقاء حاضراً ومشاركاً بشكل كامل في اللحظة الحالية. عندما نتحلى بالصبر، فإننا نقاوم إغراء الهروب وتجنب اللحظة الحاضرة، وبدلاً من ذلك، فإننا نحتضنها بقلوب وعقول منفتحة. نتعلم أن نرى العالم كما هو، دون حكم أو توقع، ونطور القدرة على الاستجابة له بحكمة ورحمة. الصبر فضيلة تتطلب الممارسة والانضباط. يجب أن نتعلم تنمية الصبر في جميع جوانب حياتنا، وذلك من أصغر المهام اليومية إلى أكبر التحديات التي نواجهها. يجب أن نتحلى بالصبر مع أنفسنا لأننا نرتكب الأخطاء ونتعلم منها، ويجب أن نتحلى بالصبر مع الآخرين وهم يتنقلون في مساراتهم الخاصة.

الصبر هو القدرة على تحمل المحن والآلام بروح ثابتة ومسالمة. الصبر ليس قبولاً سلبياً للظروف الصعبة، بل هو ثقة نشطة في عناية الله، واستعداد للمثابرة في مواجهة الشدائد. يمكننا أن نرى أمثلة

على الصبر في جميع أسفار الكتاب المقدس. نرى في سفر أيوب كيف تحمل أيوب معاناة وخسارة هائلة، ومع ذلك ظل أميناً لله ولم يفقد الأمل. نرى في العهد الجديد كيف تحمل الرسل الاضطهاد والسجن. نرجو أن نجتهد جميعاً لتنمية فضيلة الصبر في حياتنا، ونجد الراحة والقوة في كلمات القديس يعقوب: "إِحْسِبُوهُ كُلَّ فَرْحٍ يَا إِخْوَتِي حِينَمَا تَقْعُونَ فِي تَجَارِبٍ مُتَنَوِّعَةٍ، عَالِمِينَ أَنَّ امْتِحَانَ إِيْمَانِكُمْ يُنْشِئُ صَبْرًا. وَأَمَّا الصَّبْرُ فَلْيَكُنْ لَهُ عَمَلٌ تَامٌ، لِكَيْ تَكُونُوا تَامِينَ وَكَامِلِينَ غَيْرَ نَاقِصِينَ فِي شَيْءٍ" (يعقوب ١: ٢-٤).

أخيراً، يتطلب الصبر روح التواضع والمغفرة. يجب أن ندرك أننا جميعاً غير كاملين، وبحاجة إلى رحمة الله ونعمته. عندما يظلمنا الآخرون أو يؤذونا، يجب أن نقاوم الرغبة في الانتقام أو الانفعال. بدلاً من ذلك، يجب أن نقدم نفس الغفران والعفو الذي تلقيناه من الله. دعونا نسعى جاهدين لزراعة الصبر في حياتنا اليومية. دعونا نثق في خطة الله، ونتحمل المعاناة بالنعمة، ونمنح بعضنا بعض المغفرة والتفاهم. نرجو أن نتذكر كلام القديس يعقوب الذي كتب: "فَتَأْتُوا أَيُّهَا الْإِخْوَةُ إِلَى مَجِيءِ الرَّبِّ. هُوَذَا الْفَلَّاحُ يَنْتَظِرُ ثَمَرَ الْأَرْضِ الثَّمِينِ، مُتَأَنِّياً عَلَيْهِ حَتَّى يَنَالَ الْمَطَرَ الْمُبَكِّرَ وَالْمُتَأَخِّرَ، فَتَأْتُوا أَنْتُمْ وَتَبْتَئُوا قُلُوبَكُمْ، لِأَنَّ مَجِيءَ الرَّبِّ قَدْ اقْتَرَبَ" (يعقوب ٥: ٧-٨). آمين.